ثقافة

جديده يضم قصائده العربية مترجمة إلى الإسبانية
طلال حيدر: بعلبك صارت شعري

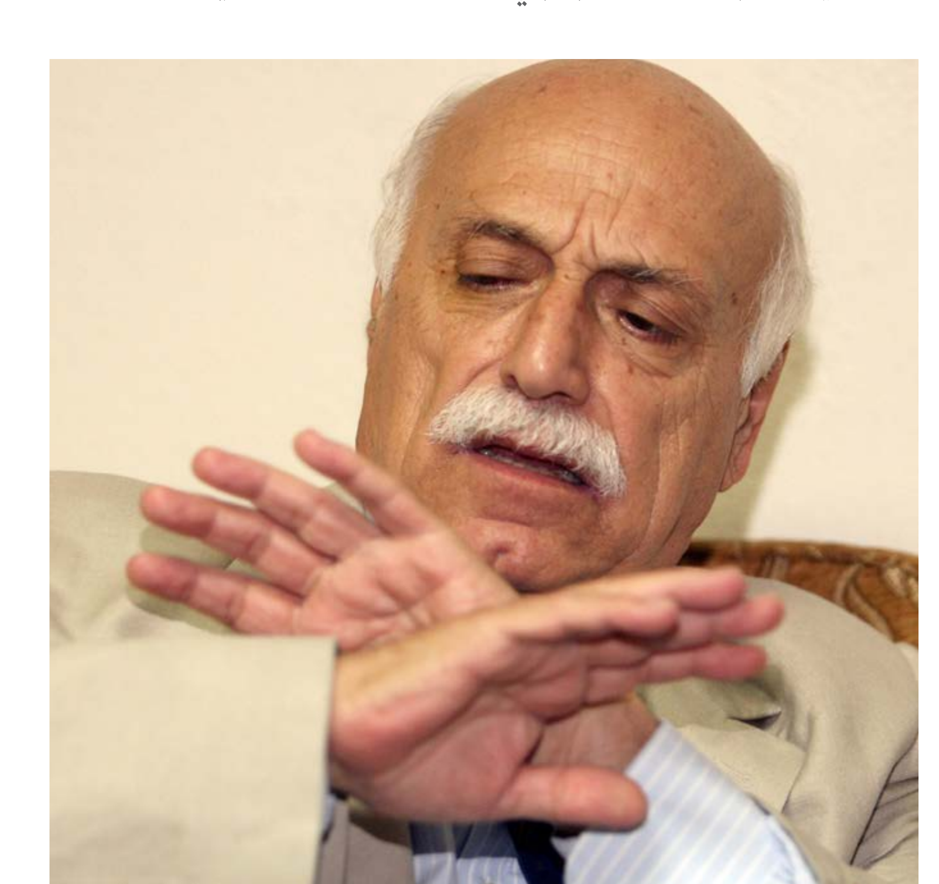
لعلها المرة الاولى يبوح بها طلال حيدر بعمره. في حواراته السابقة الكثيرة، كان يكرر دوما بأنه ما زال طفلا. لا يشعر انه كبر. وحين اعترف لنا بعمره، كرر ايضا انه ما زال يحتفظ بذلك الطفل البعلبكي الممتلئ دهشة ورؤى وخيالات

مناسبة الحوار مع "زوربا البعلبكي" صدور كتاب "دفاتر بعلبك" Cuadernos de Baalbek الذي يضم عشرين قصيدة لطلال حيدر بالعربية، ومقابلها ترجمتها الاسبانية.

في معظم اطلالته التلفزيونية وحواراته الاعلامية الممتدة على مدى سنوات، كان طلال حيدر (1937) يعبر عن هاجس دائم يسكنه، او معيار يلجأ اليه في تقييم الابداعات الاخرى: ان لا يكون المبدع صدى لمن جاء قبله.

حين نظم ميشال طراد (1912 ـ 1998) قصيدته الاولى "ع طريق العين" في العام 1921، رفع الزجل الى مرتبة الشعر. جاء في مطلع القصيدة: "ع طريق العين محلا التكتكي/ والقمر ع كتف صنين متكي/ بيكشح الغيمات تياخد هوا/ وبيطل بيوجو، وبيوجو حكي". يورد كتاب "رواد الشعر العامي في لبنان" (تأليف الدكتور ميشال خليل ضاهر) ان هذه القصيدة هزت المشهد الشعري، و"يومها خافوا على الفصحى! واحسوا كأن الضيعة والجبل قد نزلا الى المدينة". شاعر لبنان والمرأة والجمال "اخرج الشعر من عفوية الزجل ومناسبيته الى فضاء انساني ووجداني متكامل عميق" وفق ما كتب الشاعر حبيب يونس في ملحق جريدة "النهار" عام 1999.

واذا كان يُحسب لميشال طراد وطبعا سعيد عقل (1911 ـ 2014) ريادتيهما في نقل الزجل الى مرتبة الشعر الصافي، فان طلال حيدر ابى ان يكون صدى لهذين العملاقين. هو الذي قال مرة: "لم اتوقف عند اسوار هذه الريادة (ريادة سعيد عقل) بل تجاوزت بالمفهوم اللغوي وبالفعل الشعري وبنيوية اللغة، لبنانية الاداء، الى عربية الروح الشعرية. كان شعري في مختلف مراحله بمفرداته التي تنفتح لكل القاموس العربي، بانني آت من الفصحى، وليس الزجل وبنيويته. شعرية اغتنت بالتراث العربي والتراث الانساني في العالم". تكفي قصيدة "ركوة عرب" للاستدلال على هذه الفرادة الشعرية وعمقها العربي الحضاري: "احلى من الركوة/ على منقل عرب/ احلى من الفنجان/ حلوه/ متل عُبي القصب/ خيط القصب تعبان/ جيبوا حدا من دمر/ يدقدق وشم/ جيبوا من الهامة/ والوشم/ بن محمص وهب الهوا شامي/ غمازة لعالخد/ ما الها اسم؟/ والخد قدامي/ ومكحلي.../ والكحل راسمها رسم/ مين لبرا قلامي/ ومشنشلي متل الفرس/ والسرج خيالي/ بايدا اساور من دهب/ بتخش/ بتخش؟ بيدور الطرب ليوم القيامة".


الشاعر طلال حيدر.

> **انا شجرة يابسة بين حب وحب**
>
> **الوطن هو الاصحاب. والفن هو مقاومة الموت**

ابن بعلبك، الذي لم يكبر، شكلت مدينة الشمس خزان صوره وتأملاته الوجدانية الشعرية. اختط لنفسه مسارا جعله عمودا اخر من اعمدة الشعر المحكي. قصائده مركبة، بنبرة تأملية وحداثية، وصور غريبة بجدتها، مسكونة بالقبض على الزمن الهارب كما قال مرة... زمن الطفولة الذي يكتنف لحظات الدهشة والتجارب الاولى. لنقرأ: "هـ الكان عندن بيت/ وصورة/ عليها ناس/ معلقين بخيط/ وقعوا ع سطوح العُمر/ وسْتلقتهن الحجار/ وقعوا/ متل ما بيوقع المشمش/ ع ولاد الصغار/ وَين اهلي؟/ وَين طاحونة حزن خيي الصغير؟/ لك.. عن يا قلبي/ متل هـ النَحل جُوات القَفَير/ وِقع العُمر/ ما بين ايد وهزات السرير"، او مثلا "خوِفي عليك تكبري/ وخوفي على حالي/ رح تنزل عْلِي الدنيَ/ ويتغرق خيالي".

سيرة طلال حيدر الشخصية لا تقل خصوبة عن مساره الابداعي. الشاعر الذي عكس في قصائده تفاصيل الذات الانسانية الريفية البسيطة وعلاقتها بالطبيعة بصور مدهشة، ولد في بيئة عائلية قاسية على ما يكرر دوما. كان التعبير عن الحنان والحب وصمة ضعف وعيب، كان الجغرافيا ذات الشروط المناخية والطبيعية القاسية انغرست ايضا في طباع ساكنيها وشخصيتهم. لكن العلاقة التي ربطته ببيئته الاولى، كانت سمتها المد والجزر، اشكالية بامتياز. هنا حيث البيئة الخشنة، الصلفة القاسية، والقاحلة، حيث لا وجود لاي عنصر انثوي، ستفتح اعين وخيال طلال الصغير على الدهشة و"المعجزات" الطبيعية الاولى. "حزن الصفصاف" كلمة طبعت مخيلة طلال الصغير حين سمعها للمرة الاولى من العرب البدو الذين كانوا يزورون والده. حيرته هذه العبارة، احزنته، ومن وقتها يواظب على وضع ورقة صفصاف تحت وسادته حتى "يقبض على الصيف الهارب"، على الفرح، على الحياة....

على هذا المنوال، كانت دهشة الاكتشافات سمة طفولته، خصوصا في علاقته مع الطبيعة وعناصر بيئته الريفية الاولى. يذكر ايضا حين يستعيد طفولته، عندما كان ينام تحت شجرة اللوز في اوائل الربيع، يدفعه الفضول ليرى ◄

نقطة على السطر

الشعر والجغرافيا

هناك مدن تقترن بالشعر والشعراء، وهناك شعراء اقترنت اسماؤهم بالمدن. اذا كان الشعر عابرا للمكان والزمان، وحتى للثقافات واللغات، فإن المكان يكون في حالات كثيرة هو الحضن الذي تنبت فيه القصيدة وتترعرع... تغرف مناخاتها وموضوعاتها، مفرداتها وصورها وايقاعاتها.

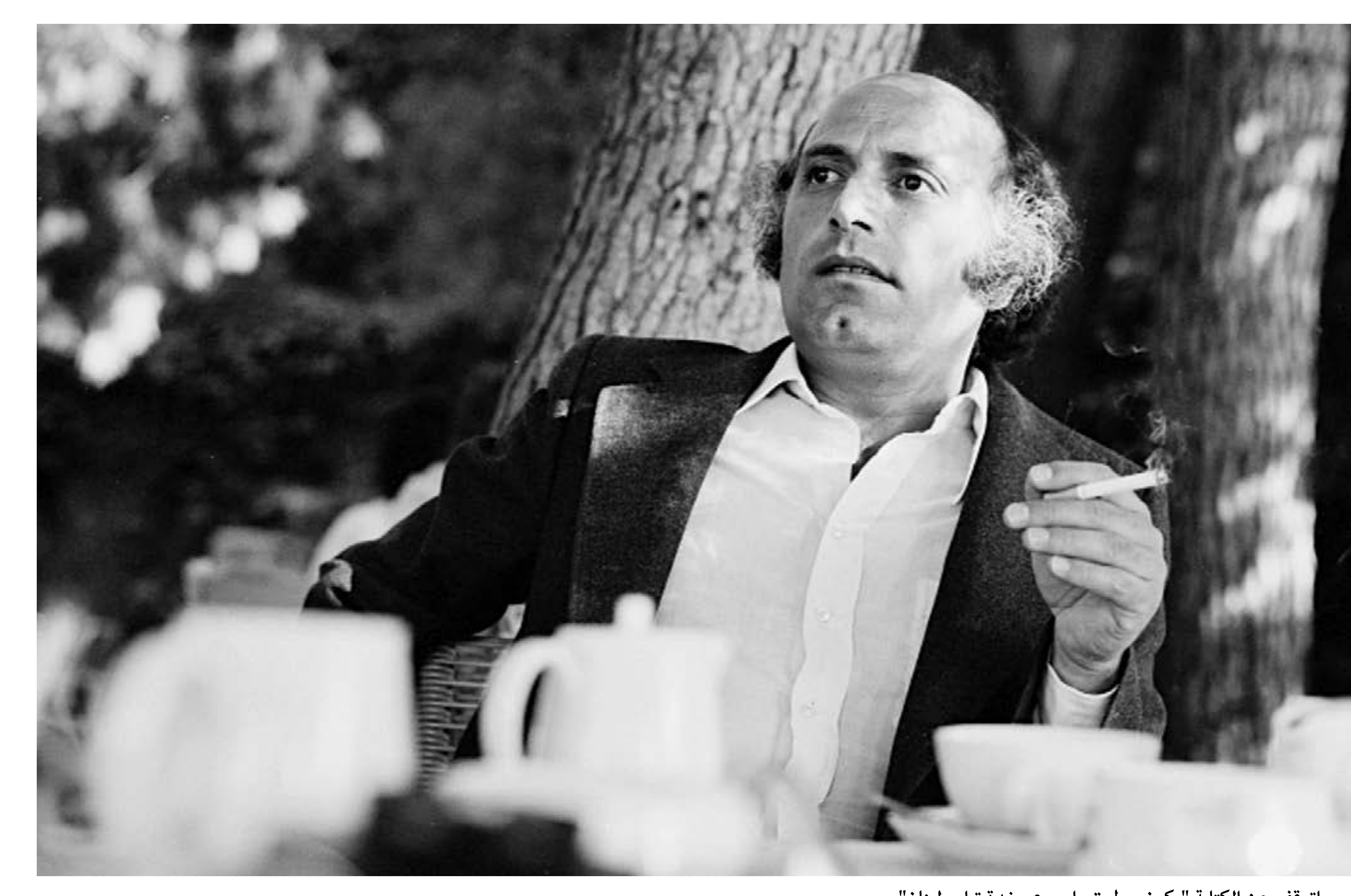
حين نقول بدر شاكر السياب مثلا، تحضر جيكور (وجيكور خضراء/ مسّ الاصيل/ ذرى النخل فيها/ بشمس حزينة)... ما هم ان يكون الشاعر عاش بعيدا منها، مشتاقا اليها؟ فالزمن الشعري غير الزمن الواقعي، يعطي الصدارة للرؤيا، للذكرى، للشوق، وبأوهام الشعراء يرصع الحقائق. كلنا يستذكر المدن القديمة التي احتضنت الشعر، وانجبت الاساطير، والهمت الشعراء: بابل واور ومأرب والبتراء وممفيس وطيبة. ويمكن طبعا ان نتجاوز الشعر نفسه الى الادب. باريس هي "بؤساء" فيكتور هوغو، بقدر ما هي تسكعات جاك بريفير التي لا تنتهي، او همهمات غيوم ابولينير الواقف عند جسر ميرابو يتسقط الزمن الهارب (الحب يمضي مثلما تلك المياه الجارية/ الحب يمضي). وفي شوارع لندن وعالمها السفلي نقتفي اثر اوسكار وايلد وبطله دوريان غراي. ويأخذنا الفريد دوبلين الى برلين في "الكسندر بلاتس"... وفي زمن اقرب نتوه في نيويورك مع بول اوستير صاحب "الرباعية".

كثيرة هي المدن والعواصم العربية التي ارتبطت بصوت هذا الشاعر/ الكاتب او ذاك: موسكو ماياكوفسكي، واثينا ريتسوس، واسكندرية كافافيس، ولشبونة فرناندو بيسوا، وبراغ فرانتز كافكا، ومدريد فدريكو غارسيا لوركا، وبوينس ايرس خورخي لويس بورخيس... ذاكرتنا الشعرية العربية اقترنت بمدن كبغداد، والقاهرة ودمشق. بيروت غناها سعيد عقل ونزار قباني (يا احلى لؤلؤة اهداها البحرْ/ الآن عرفنا ما معنى/ أن نقتلَ عصفورا في الفجرْ/ الآنَ عرفنا ما معنى/ أن ندلقَ فوقَ سماءِ الصّيفِ زجاجة حبرْ). الشام أيضاً غناها نزار، كما غناها سعيد عقل ببعض اجمل شعرهِ (اهلكَ التاريخ من فُضلتهم ذكرُهم/ في عُروة الدهر وِسَـامْ/ أمويّونَ، فإنْ ضقْـت بهم/ ألحقوَا الدنيا ببستان هشامْ). من دون أن ننَسى محَمَد الماغوط (دمشق ياَ عربَة السبايا الورديّة)، وانين احمد عبد المعطي في القاهرة، وهو مشتاق الى قريته البعيدة...

بين هؤلاء الشعراء الكبار يقف طلال حيدر على حدة، بشموخه البعلبكي، وفروسيته وعناده. بالتزامه السياسي ايضا، فإحدى اجمل قصائده كتبها للمناضل الشهير فؤاد الشمالي (يا بنت راعي الغنم هالموت مقبالي/ ردّي معي البواب جايي الهوا شمالي). طلال حيدر هو شاعر بعلبكي؟ بل عربي واممي... وهو شاعر بعلبك بامتياز! مدينة الشمس تعاقبت عليها الحضارات، والشعراء، لكن طلال حيدر شاعرها بامتياز. "بِغيبتك نزِل الشتي/ قومي طلعي ع البال/ في فوق سجادة صلا/ والعم بيصّلوا قلال/ صوتنَ متلَ مصرِ المرا/ وبعلبك الرّجال/ ع كتر ما طلع العشب بيناتنا/ بيرعى الغزال". أعطته بعلبك خشونتها الخارجية التي تخفى رقة وطيبة واصالة. اعطته وقع قصائده، وتشابيهه وصوره الشعرية. علما ان قصيدة طلال حيدر مشرّعة على الجغرافيا، تتجاوز حدود لبنان الى الامة العربية... من الشام الى مصر مرورا بدمّر والهامة (جيبوا حدا من دُمّر/ يدقدق وشم/ جيبوا من الهامة ...).

لا شك في ان القصائد تتقاطع مع الخرائط... وان الشعر علاقاته متشابكة مع الجغرافيا... في المكان هو الجرح الاول، حدود الدنيا الآخذة في الاتساع والذوبان لتستحيل حنينا وفراقا. المكان هو الطلل لدى الشاعر الجاهلي، صدّر به قصيدته، والمكان هو اللغة ومعين الوحي. هذه العلاقة الوجدانية، التأسيسية، الجنينية، لم يعبّر عنها احد افضل من ابي تمام. فـ"كمْ منزل في الأرضِ يألفه الفتى/ وحنينُه أبداً لأولِ منزلِ".

سمير مراد



يوم اتوقف عن الكتابة "بكون حطيت راسي ع مخدة تراب لبنان"

◄ كيف يتفتح زهر اللوز. لكنه كان يستفيق ليرى زهر اللوز وقد تفتح! انطلاقا من هذه المواقف الصغيرة، يصف علاقته في اصطياد اللحظات الشعرية الفريدة: "انا مسكون بهاجس الزمان لانني ابحث عن بطء الحركات السعيدة التي لا تُقطف".

قصيدته الاولى كتبها في عمر السابعة عشرة في اثناء تواجده في طرابلس حين انتقلت عائلته الى هناك للعمل بعد ضيق الحال. حملت القصيدة عنوان "فخار" وجاءت باللهجة اللبنانية المحكية الاقوى تعبيرا عن ديناميته والاكثر قربا من الوجدان الجمعي. لاحقا، سيدرس الفلسفة في الجامعة اللبنانية، ثم يواصل تعليمه في جامعة السوربون في باريس، ليعيش متنقلا بين عواصم عدة، فيمضي عشر سنوات في ايطاليا وخمس عشرة في بعلبك ومدةً في بيروت والخليج، قبل ان يعود الى المكان الاول.

طلال حيدر نهم للحياة، عاشق لها، خبأ داخله ذلك الطفل الممتلئ دهشة، صانه من قساوة التجارب، فحافظ على لياقته الشعرية. طبعا، لا يمكن ان ننسى فيروز التي غنت اجمل قصائده واعطتها بعدا وصورا ودهشة اخرى بصوتها، لم يكن هو قد لاحظها وفق ما قال مرة. "وحدن بيبقوا"، "يا رايح"، "يا راعي القصب" منحتها فيروز شجنا اضافيا وجاءت الموسيقى (خصوصا في اغنية "وحدن بيبقوا" لزياد الرحباني) لتكمل اللوحة، الى جانب فنانين اخرين غنوا من قصائده امثال مارسيل خليفة ("ركوة عرب"، "قومي اطلعي ع البال"، "سجر البن"، "بيتي")، وماجدة الرومي (لبسوا الكفافي) واميمة الخليل (مينن هن) ونجوى كرم (العمر مشوار)، والراحل وديع الصافي (مينن هني).

الشهر الماضي، اعلن مدير "معهد سرفانتس" غارسيا مونتيرو في فندق "بالميرا" الذي كان شاهدا على عصر ذهبي لبعلبك ولبنان، عن اطلاق كتاب "دفاتر بعلبك" Cuadernos de Baalbek الذي يضم عشرين قصيدة لطلال حيدر بالعربية، ومقابلها ترجمتها الاسبانية.

وسط الزلزال المحيط بنا، والانهيار الشامل للبنان الذي رسمته لنا المخيلة الشعرية لطلال حيدر وقبله ميشال طراد وسعيد عقل، والاخوان رحباني في الموسيقى والمسرح وغيرهما من الرعيل المؤسس لهوية لبنان الفنية في الذاكرة الجمعية، نتساءل: هل ما زال هناك مكان للشعر وسط هذا الكابوس الذي نعيشه؟ هل الشعر ترف حقا ام انه حبل نجاة للغريق او كما قال سعيد عقل: "والكونُ، قُلْهُ رنينَ الشعر، قُلْهُ صَدى لِكَفِ رَبِكَ اذ طَنَت عَلى الزَمنِ؟".

هذا السؤال الى جانب تساؤلات اخرى شكلت حافزا للقاء "زوربا البعلبكي" كما لقبه الشاعر الكبير الراحل انسي الحاج.

■ صدور "دفاتر بعلبك" مختارات من 20 قصيدة مترجمة الى الاسبانية، في رأيك ما الذي تجلبه الترجمة لشاعر كبير مثل طلال حيدر؟

□ اعتقد بأن ذلك يشكل افادة للثقافة في لبنان اي نقل الثقافة اللبنانية الى الثقافات الاخرى وتعريفها به. نظرية الترجمة في الفن صعبة. الترجمة لا يعني نقل التعبير الحرفي لان كل لغة لها خصائصها وتعابيرها التي تؤدي الى جمالية هذه اللغة.

■ هناك شعر لا يترجم، يفقد كثيرا من صورته والتباساته، هل شعر طلال حيدر من هذا النوع؟

□ اذا كان الشعر لعبا على اللغة ومستندا الى تركيب لغوي، عندئذ تصعب ترجمته لانه شعر لا يحمل رؤى انسانية مشتركة. كلما كان الشعر ذا رؤية انسانية، كلما سهلت ترجمته. اما اذا كان مستندا الى تركيب لغوي، فهو ضعيف لا يصب في المجرى الانساني.

■ هل هناك مشاريع جديدة تعمل عليها؟

□ لدي ديوان جديد بعنوان "الوهم" عن الزمن. اكتشفت ان الزمن وهم وان كل اعمالي تمحورت حوله. وخلال عبوري في الزمان، اتحدث عن قضايا الانسان كلها: الحياة، الموت، الفن، الحب والصداقة. يقول الناس ان الفضل في اصداري للديوان يعود الى الكورونا، لكن هذا ليس صحيحا. انا ما كنت اكتب الا وقت بستاهل، اي عندما تضاء روحي وتتجرد من الحسد والحقد والانانية والغيرة وكل ما يحرق غابات الروح، فتصبح عندئذ صافية.

■ هل ما يحدث في البلد من انهيار على مختلف الصعد، يؤثر على وتيرتك في الكتابة، بمعنى هل ما زلت تكتب في خضم كل هذا الزلزال الذي نعيشه؟

□ في الازمنة التدبيرية، يخيم الخوف والقلق، وتسكت المشاعر البقية. لكن بما انني بلغت الـ85 من العمر، وعايشت كوارث كثيرة، بدءا من كارثة الـ48، والحروب الاهلية في لبنان، فقد تكسرت النصال على النصال. تعودت على الكوارث، ولم تعد حاجزا بيني وبين الشعر.

■ الحزب السوري القومي الاجتماعي ما الذي اعطاه لشعر طلال حيدر؟

□ لقد فتح وعينا ونحن صغار على كونه اول حزب لا طائفي. وهو اول من دلنا على القضية الفلسطينية وعدم الانتماء المذهبي. تأثرت به، وكتبت قصيدة "فلسطين" الشهيرة (قال عنها محمود درويش: "قصيدة طلال تُغني عن كل ما كتبنا لاجل فلسطين").

CUADERNOS DE BAALBEK
Talal Haidar
Poemas
Taller de traducción
INSTITUTO CERVANTES DE BEIRUT / UNIVERSIDAD LIBANESA

غلاف ديوانه عن بعلبك بالاسبانية.

■ لبنان الذي رسمته وصنعته في شعرك وقصائدك مع الرحابنة وتوفيق الباشا في الموسيقى والمسرح، هو الذي ينهار؟

□ عبر تاريخه، مرت على لبنان الكثير من الجيوش والحروب والمحن. لكنها ذهبت، وبقي هو. طبعا، انا حزين على ما يحدث اليوم. لكن لبنان باق. واتذكر هنا قصيدتي التي غنتها ماجدة الرومي "مهما تشتد العواصف ويجور الزمان، بتضلك يا وطني صامد، بتضلك لبنان". سرقوا "زيتات القناديل كيف بدو يضوي هالليل". لكنني لست خائفا على لبنان بشكل عام. خائف على الزمن اللبناني الحالي لانهم يشعلون الحرائق المالية والمذهبية والاقتصادية والاجتماعية وحتى الوبائية. لكن في النهاية، لبنان سينهض من رماده كطائر الفينيق. لا اخاف عليه.

■ علاقة اشكالية تربطك ببعلبك، هي منبع الهامك لكن ايضا تتحدث مرارا عن البيئة الخشنة والبعل التي تربيت فيها.

□ بالنسبة الي، فبعلبك هي "الاه" و"الاخ". "اخ" على بعلبك التي تشوهت اليوم. لذلك، فكتابي "دفاتر بعلبك" هو سجل لبعلبك التي عرفتها كي لا تمحى من الذاكرة، بعلبك التي بقيت فينا. في ما مضى، كانت المحبة هي الغيمة التي تغطي بعلبك وتمطر على كل البيوت. لكن بعلبك صارت يتيمة، ليس لها احد. لا احد يهتم بها كي تصير حلوة متلما كانت في الماضي. و"الزمان لما يفل بياخد المكان معه". وبعلبك صارت هي شعري.

■ قلت مرة ان القصائد تطلب فيروز كي تصبح اغنية، كيف تشعر حين تسمع قصيدتك بصوت فيروز؟

□ اشعر انها سرقتها مني لان الصوت يسرق الكلام. في "وحدن" (الحان زياد الرحباني) و"يا رايح" (الحان فيلمون وهبي)، لم افكر في اللحن الذي انجزه فيلمون ولا زياد. وحين سمعت الاغنيتين بصوت فيروز، احسست انها اعطتهما معاني ما كانت تخطر في بالي ابدا.

■ تحدثت مرة في احدى مقابلاتك عن ان والدتك كانت تصفك بالمجنون، في رأيك هل الشاعر حكما مجنون؟

□ ما الفرق بين الشاعر والمجنون؟ المجنون يدخل عالما مدهشا ويبقى فيه. اما الشاعر، فيدخله، ويخرج ليخبر اسراره وسحره ورؤاه. ما الفرق بين الشعر والنثر؟ الاثنان مدماكا الكلمة. لو قلنا شجرة، هنا تهدف الكلمة في النثر الى تقريب الموصوف. اما الشعر، فهدفه ان يبعد اكثر فاكثر عن الموصوف. "شجرة النوم" مثلا تخلق الموصوف للمرة الاولى. انا اعرف الشِعر بانه اخر الحرية.

■ الحب والصداقة يوصلانك الى نفسك وسط التوحش المحيط بنا، هذا ما قلته مرة.

□ انا شجرة يابسة بين حب وحب. الوطن هو الاصحاب. والفن هو مقاومة الموت. يوم اتوقف فيه عن الكتابة "بكون حطيت راسي ع مخدة تراب لبنان ورحت عالاخر".

س. م